

صيد الخاطر

333 - - فصل : استقامة الأمور باستقامة الباطن .

ما رأيت أطرف من لعب الدنيا بالعقول و قد سمعنا و رأينا جماعة من الفطناء الكاملين العقل لعبت بهم الدنيا حتى صاروا كالمجانين فولوا الولايات فخرجوا إلى القتل و الضرب و الحبس و الشتم و ذهاب الدين و المباشرة للظلم كله لأجل دنيا تذهب سريعا .
و هي في مدة إقامتها معجونة بالنقص .

فيا أيها المرزوق عقلا لا تبخسه حقه و لا تطفئ نوره و اسمع ما نشير به و لا تلتفت إلى بكاء طفل الطبع لفوات غرضه .

فإنك إن رحمت بكاءه لم تقدر على فطامه و لم يمكنك تأديبه فيبلغ جاهلا فقيرا : .

(لا تسه عن أدب الصغ ... ير و لو شكا ألم التعب) .

(و دع الكبير لشأنه ... كبر الكبير عن الأدب) .

و اعلم أن زمان الإبتلاء ضيف قراه الصبر كما قال أحمد بن حنبل : [إنما هو طعام دون طعام و لباس دون لباس و أنها أيام قلائل فلا تنظر إلى لذة المترفين و تلمح عواقبهم و لا تضق صدرا بضيق المعاش و علل الناقة بالحدو تسير : .

(طاوول بها الليل مال النجم أم جنا ... و ما طل النوم من الجفن أم سمحا) .

(فإن تشكت فعللها المجرة من ... ضوء الصباح و عدها بالرواح ضحى) .

و قد كان أهدي إلى أحمد بن حنبل هدية فردها ثم قال بعد سنة لأولاده : [لو كنا قبلناها كانت قد ذهبت] .

و مر بشر على بئر فقال له صاحبه : أنا عطشان فقال : البئر الأخرى فمر عليها فقال له : الأخرى ثم قال : كذا تقطع الدنيا .

و دخلوا إلى بشر الحافي و ليس في داره حصير فقيل له : ألا بدا تؤذى ؟ فقال : هذا أمر ينقضي .

و كان لداود الطائي دار يأوي إليها فوق سقف فانتقل إلى سقف إلى أن مات في الدهليز .
فهؤلاء الذين نظروا في عواقب الأمور و بعد هذا فلا أطالبك بهذه الرتبة بل أقول لك : إن حصل لك شيء من المباح لا من فيه و لا أذى و لا نلتة بسؤال و لا من يد ظالم تعلم أن ماله حرام أو فيه شبهة فإفسح لنفسك في مباحاتها بمقدار ما تحتاج إليه و كن مقدرا للنفقة غير مبذر .

فإن الحلال لا يحتمل السرف و متى أسرفت إحتجت إلى التعرض للخلق و التناول من الأقدار .

و إن ضاق بك أمر فأصبر فإن ضعف الصبر فسل فاتح الأبواب فهو الكريم و عنده مفاتيح الغيب .

و إياك أن تبذل دينك بتصنع للخلق أو يتقرب إلى الأمراء و تستعطي أموالهم .

و أذكر طريق السلف : كان ابن سمعون له ثياب يجلس فيها للناس ثم يطويها إلى المجلس الآخر ورثها عن أبيه بقيت أربعين سنة .

و كانت ميمونة بنت شاقولة تعظ الناس و لها ثياب قد بقيت أربعين سنة .

و من صفا نظره و تهذب لفظه نفع وعظه و من كدر كدر عليه .

و الحالة العالية في هذا إقبال القلب على الله و التوكل عليه و النظر إليه و إلتفات القلب عن الخلق .

فإن إحتجت فإسأله و إن ضعفت فإرغب إليه .

و متى ساكنت الأسباب إنقطعت عنه و متى إستقام باطنك إستقامت لك الأمور